المَنْهَجُ السُّنَنِيُّ فِي قِرَاءَةِ تَجْرِبَةِ بَنِي إِسْرَائِيْلَ فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ

رئيس التحرير
د. محمد محمود مرتضى

يحضر بنو إسرائيل في القرآن الكريم حضورًا كثيفًا ومركزيًّا، حتى يكاد القارئ يلحظ أنَّ هذا الحضور يتجاوز البُعد التاريخي أو السردي إلى أفق سُنَنيّ يتعلّق ببنية العلاقة بين الوحي والمجتمع، وبين الرسالة والتاريخ. فالقرآن يستدعي تجربة بني إسرائيل باعتبارها مختبراً إنسانيًّا لفهم قوانين الاصطفاء، وشروط الانحراف، وآليّات السقوط، وسُنن الاستبدال. ومن هنا تتجاوز دراسة بني إسرائيل حدود الجدل الديني أو السياسي، لتصبح مدخلاً لفهم المسار الحضاري للأُمم، وكيف تتحوَّل الرسالات إلى طاقات بناء، أو تنقلب إلى أدوات تبرير حين تفقد بُعدها الخُلُقي.

أوَّلًا: مدخل في مركزيَّة قضيَّة بني إسرائيل في الخطاب القرآني

يتَّضح للقارئ أنَّ القرآن الكريم أفرد مساحة واسعة للحديث عن بني إسرائيل، إنْ من حيث الكمّ، أو من حيث التوزّع في السور المكيَّة والمدنيَّة، ما يكشف عن قصديَّة تربويَّة وحضاريَّة. فذكرهم يتكرَّر في سياقات متعددة: سياق التذكير بالنعم، وسياق التحذير من الانحراف، وسياق بيان سُنن السقوط والنهوض، وسياق المواجهة مع النبوَّة. وهذا التنوّع

يدلّ على أنَّ القرآن يهدف إلى بناء وعي سُنني يجعل تجربة بني إسرائيل نموذجًا لفهم علاقة الإنسان بالوحي.

فالقرآن يفتتح خطابه مع بني إسرائيل بمنطق التذكير بالنعمة والمسؤوليَّة، كما في قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ٤٧]. إنَّ هذا التفضيل لا يُعرض بوصفه امتيازًا ذاتيًّا، وإنَّما بوصفه تكليفًا تاريخيًّا؛ لأنَّ السياق القرآني نفسه يربطه بالعهد والميثاق. فالتفضيل هنا مشروط بالوفاء. ومن هنا يتكرَّر في القرآن الربط بين النعمة والعهد: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾ [البقرة: ٤٠]، وهو ربط يؤسِّس لفكرة أنَّ الاصطفاء هو علاقة متجدِّدة بين الله والإنسان.

ويكشف هذا المنهج أنَّ القرآن يعيد تعريف الهويَّة الدينيَّة على أساس خُلُقي، لا قومي أو تاريخي. ولذلك نجد أنَّ الخطاب ذاته يوجَّه إلى الأُمَّة الإسلاميَّة لتحذيرها من الانحراف نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**﴾ [البقرة: ٨٥]. فالآية، وإن وردت في سياق بني إسرائيل، فإنَّها تحمل طابعًا تحذيريًّا عامًّا؛ لأنَّ القرآن يجعل الانقسام في الدين نمطًا يتكرَّر حين تتحوَّل الرسالة إلى هويَّة مغلقة.

كما يظهر هذا الحضور المركزي في أنَّ القرآن يحلّل البنية النفسيَّة والاجتماعيَّة التي أدَّت إلى الانحراف. فنجده يشير إلى أمراض، مثل القسوة، والتمرّد، والتعلّق بالمظاهر، كما في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ [البقرة: ٧٤]. إنَّ هذا التحليل النفسي يكشف أنَّ المشكلة تكمن في خلل داخلي في بنية الوعي.

ومن اللافت أنَّ القرآن يعرض تجربة بني إسرائيل بوصفها صراعًا دائمًا بين النبوَّة والمؤسَّسة الدينيَّة. فالأنبياء في هذه التجربة -مضافًا إلى كونهم قادة روحيين- كانوا أيضًا مجدِّدين يواجهون بنى اجتماعيَّة ومصلحيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ**﴾ [المائدة: ٧٠]. وهذا يكشف أنَّ الانحراف يبدأ حين تتحول الرسالة إلى أداة لخدمة المصالح، فيصبح الوحي تهديدًا لا مرجعيَّة.

إن هذا البعد يجعل قضيَّة بني إسرائيل مركزيَّة في بناء الوعي القرآني، لأن القرآن يعرض من خلالها قوانين تاريخيَّة عامة. فالتجربة تكشف أن الأمم قد تبلغ ذروة القرب من الوحي، ثم تنحرف حين تفقد الحس الأخلاقي. فالقرآن يوجّه الأمة الإسلاميَّة إلى قراءة هذه التجربة بوصفها مرآة، كما في قوله تعالى: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ [الحشر: ٢].

وعلى هذا الأساس، فإنَّ حضور بني إسرائيل في القرآن هو قضيَّة حضاريَّة تتعلَّق بفهم السُّنن التي تحكم صعود الأُمم وسقوطها. وهذا ما يجعل دراستهم في السياق القرآني المعاصر ضرورة لفهم التحدِّيات الراهنة؛ لأنَّ القرآن لا يقدِّم تاريخًا مغلقًا، وإنَّما سُننًا مفتوحة. فكلّ أُمَّة يمكن أن تسلك طريق الاصطفاء أو طريق الاستبدال، بحسب موقعها من العدل، والأخلاق، والوفاء بالعهد.

ثانيًا: الاصطفاء في التصوّر القرآني

يمثّل مفهوم الاصطفاء في القرآن الكريم أحد المفاتيح الكبرى لفهم تجربة بني إسرائيل؛ لأنَّ هذا المفهوم هو الذي شكّل أساس علاقتهم بالوحي، وهو نفسه الذي يحدّد موقع أي أُمَّة في مسار الرسالة. فالقرآن لا يقدّم الاصطفاء بوصفه امتيازًا ذاتيًّا أو تفوّقًا عرقيًّا، بقدر ما يعيد تأسيسه على قاعدة خُلُقيَّة رساليَّة، تجعل منه مسؤوليَّة تاريخيَّة، لا حالة ثابتة أو هويَّة مغلقة. ومن هنا يصبح فهم الاصطفاء شرطًا لفهم التحوّل الذي قاد إلى الاستبدال، كما يصبح مدخلاً لتحرير الوعي الديني من النزعات العرقيَّة أو القوميَّة التي تلبّست بالدين عبر التاريخ.

إنَّ القرآن يقرّ بوقوع الاصطفاء لبني إسرائيل، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [الدخان: ٣٢]، لكن هذا الاختيار يأتي في سياق البيان والتحذير. فالآية نفسها تشير إلى أنَّ هذا الاصطفاء قائم على العلم الإلهي، أي على معرفة بموقعهم في سياق الرسالة، لا على استحقاق ذاتي مستقلّ. ومن هنا، يصبح الاصطفاء جزءًا من سُنن الابتلاء؛

لأنَّ الاختيار في القرآن يقترن دائمًا بالامتحان، كما في قوله تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**﴾ [الأنبياء: ٣٥]. فالاختيار يضع الأُمَّة في موقع الاختبار، لا في موقع الأمان.

ويكشف القرآن أنَّ الاصطفاء في جوهره وظيفة رساليَّة؛ إذ يرتبط بحمل الوحي، وإقامة العدل، والشهادة على الناس. ولذلك نجد أنَّ الخطاب القرآني يربط بين النعمة والمسؤوليَّة، كما في قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٢٢]، ثمَّ يعقب ذلك مباشرة بالتذكير بالعهد. فالمسألة هي علاقة تعاقديَّة تقوم على الوفاء. إنَّ هذا الربط بين الاصطفاء والعهد يعبّر عن رؤية قرآنيَّة تجعل الدين مشروعًا خُلُقيًّا تاريخيًّا، وليس مجرَّد انتماء وراثي.

ومن اللافت أنَّ القرآن يعيد توجيه مفهوم الاصطفاء نحو التقوى والعمل، فينقل مركزه من الهويَّة إلى الأخلاق، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]. فهذه الآية تمثّل إعادة تأسيس جذريَّة للفكرة؛ لأنَّها تجعل الكرامة مفتوحة أمام كلّ إنسان، وتكسر الاحتكار التاريخي لفكرة «الشعب المختار». ومن هنا، يتحوَّل الاصطفاء من امتياز إلى مسار، ومن هويَّة إلى حركة، ومن وراثة إلى مسؤوليَّة.

إنَّ التحليل القرآني يكشف أنَّ الخطر الأكبر لم يكن في الاصطفاء ذاته، وإنَّما في تحوّله إلى وعي مغلق. فحين يتحوَّل الاختيار إلى شعور بالحصانة، يبدأ الانحراف؛ لأن الإنسان يتوقَّف عن محاسبة نفسه. ولذلك ينتقد القرآن هذا التحوّل بوضوح، كما في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾ [البقرة: ٨٠]. فهذا الاعتقاد يعكس انتقال الاصطفاء من تكليف إلى ضمان، ومن مسؤوليَّة إلى شعور بالنجاة المسبقة. وهنا يكشف القرآن أنَّ الانحراف يبدأ حين يُستبدل القانون الخُلُقي باليقين النفسي.

كما يبيّن القرآن أنَّ الاصطفاء لا يلغي المساءلة، وإنَّما يزيدها؛ لأنَّ القرب من الوحي يضاعف المسؤوليَّة. ولذلك نجد أنَّ بني إسرائيل، رغم قربهم من النبوَّة، تعرّضوا لنقد شديد؛ لأنَّهم كانوا أكثر معرفة بالحقّ. فالقرآن يقرّر قاعدة عامَّة مفادها أنَّ المعرفة تفتح مجالاً أوسع

للانحراف إذا انفصلت عن العمل. ومن هنا، تأتي شدَّة الخطاب في قوله تعالى: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٣]، وهو خطاب يتجاوز سياقه الجزئي ليؤسِّس معيارًا عامًّا في تقويم الأُمم.

إنَّ هذا الفهم يعيد توجيه النظر إلى العلاقة بين الدين والتاريخ. فالاصطفاء في القرآن هو حركة صعود وهبوط؛ لأن الرسالة مشروع مفتوح. ولذلك لا نجد في القرآن مفهومًا ثابتًا لـ "الشعب المختار"، وإنَّما نجد مفهوم "الأُمَّة الشاهدة"، كما في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ [البقرة: ١٤٣]. فالشهادة هنا وظيفة مرتبطة بالعدل والحقّ.

وهكذا يتَّضح أنَّ الاصطفاء القرآني يتجاوز البُعد القومي إلى أفق إنساني عالمي. فالقرآن ينقل مركز الرسالة من جماعة مغلقة إلى إنسانيَّة مفتوحة، ومن تاريخ خاصّ إلى سُنن عامَّة. وهذا ما يجعل تجربة بني إسرائيل ذات دلالة مستمرَّة؛ لأنَّ كلّ أُمَّة قد تتحوَّل من رسالة إلى مؤسَّسة، ومن حركة إلى جمود، ومن عدل إلى استكبار.

إنَّ إعادة قراءة الاصطفاء بهذا المنظور سوف يحرِّر الفكر الديني من التوظيف السياسي للتاريخ، ويمنع تحويل الدين إلى أداة للهيمنة. كما أنَّه يفتح أفقًا نقديًّا يجعل الأُمَّة الإسلاميَّة نفسها موضوعًا للمساءلة؛ لأنَّ الاصطفاء لا يمكن اعتباره ضمانًا للبقاء، وإنَّما شرطًا للاستمرار في العدل. ومن هنا، يصبح السؤال القرآني دائمًا: كيف نحافظ على معنى الاصطفاء دون أن يتحوَّل إلى خطاب تبريري؟

إنَّ هذا السؤال هو المدخل لفهم سُنَّة الاستبدال؛ لأنَّ القرآن يجعل العلاقة بين الاصطفاء والاستبدال علاقة جدليَّة. فحين تفقد الأُمَّة وظيفتها الرساليَّة، يبدأ الانتقال التاريخي إلى غيرها.

ثالثًا: من التحول الرسالي إلى التمركز الهويَّتي

تكشف القراءة القرآنيَّة لتجربة بني إسرائيل أنَّ الانحراف لم يبدأ فجأة بل نشأ عبر مسار

تراكمي انتقل فيه الدين من وظيفة رساليَّة مفتوحة إلى هويَّة مغلقة تتمركز حول الذات. وهذا التحوّل هو أحد المفاصل الكبرى في فهم العلاقة بين الاصطفاء والاستبدال؛ لأن الرسالة حين تفقد بُعدها الإنساني والخُلُقي، تتحول إلى أداة لحماية الامتياز، بدل أن تكون لتحقيق العدل. ومن هنا، فإنَّ القرآن يحلّل هذا التحوّل البنيوي الذي ينقل الجماعة من موقع الشهادة إلى موقع الانغلاق.

إنَّ الرسالة في أصلها حركة نحو العالم؛ لأنَّها تحمل خطابًا موجّهًا إلى الإنسان بما هو إنسان. ولذلك نجد أنَّ الأنبياء في التجربة الإسرائيليَّة كانوا يسعون إلى تجديد العهد، وإعادة المجتمع إلى روح الرسالة. لكنَّ التحوّل بدأ حين أصبح الانتماء الديني بديلاً عن الفعل الخُلُقي، فتقدّمت الهويَّة على القيم، وأصبح الدين إطارًا للحماية بدل أن يكون معيارًا للمساءلة. ويشير القرآن إلى هذا المسار حين يعرض كيف انقلب العهد إلى شعار، كما في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ**﴾ [البقرة: ٨٨]. فهذه العبارة تعبّر عن حالة انغلاق معرفي وروحي؛ حيث يتحوَّل اليقين إلى حاجز يمنع الإصلاح.

ويظهر هذا التمركز الهويَّتي أيضًا في تحوّل النصّ إلى أداة تبرير. فالقرآن يشير إلى ظاهرة تحريف المعنى وتبديل المقاصد، كما في قوله تعالى: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾ [النساء: ٤٦]. إنَّ التحريف هنا يُفهم باعتباره إعادة توجيه للدين نحو خدمة المصالح. وهذا يكشف أنَّ الخطر الحقيقي في التاريخ الديني كان في إعادة تأويله بما يخدم السلطة أو الجماعة.

كما يبيّن القرآن أنَّ هذا التحوّل يرتبط بالبنية الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة؛ حيث تتكوّن طبقات تستفيد من الجمود، فتقاوم التجديد. ولذلك نجد أنَّ الأنبياء واجهوا مؤسَّسات دينيَّة واجتماعيَّة متجذِّرة، كما في قوله تعالى: ﴿**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ [البقرة: ٥٥]. فهذه المطالب كانت تعبيراً عن رفض التغيير. إنَّ المطالبة المستمرّة بالمعجزات تمثل آليَّة لتأجيل الالتزام، وهي ظاهرة تتكرَّر في كلّ تاريخ ديني حين يتحوَّل الدين إلى منظومة عادات.

ومن مظاهر هذا التمركز أيضًا نشوء الشعور بالحصانة الجماعيَّة؛ حيث تصبح الهويَّة بديلاً

عن التقوى. فالقرآن ينقل هذا الشعور بوضوح في قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**﴾ [المائدة: ١٨]. إنَّ هذا التصوّر يعبّر عن انتقال من علاقة العهد إلى علاقة الامتياز، ومن المسؤوليَّة إلى الاستثناء.

ويكشف القرآن كذلك أنَّ هذا التحوّل أدَّى إلى عزل الرسالة عن بُعدها العالمي؛ لأنَّ الجماعة التي تتمركز حول ذاتها تفقد القدرة على الشهادة. ولذلك نجد أنَّ القرآن يربط الانغلاق بالظلم، كما في قوله تعالى: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَة**﴾ [المائدة: ١٣]. إنَّ قسوة القلب هي بنية حضاريَّة تعكس فقدان الحسّ الخُلُقي.

ومن اللافت أنَّ القرآن لا يعرض هذه الظاهرة بوصفها خصوصيَّة إسرائيليَّة، وإنَّما بوصفها قانونًا عامًّا. فكلّ جماعة تحمل رسالة يمكن أن تمرّ بهذا المسار: تبدأ بوظيفة إنسانيَّة، ثمّ تنغلق، ثمّ تتحوَّل إلى مؤسَّسة تحمي مصالحها. ومن هنا، يصبح الخطاب القرآني موجَّهًا إلى الأُمَّة الإسلاميَّة نفسها؛ لأنَّ خطر التمركز الهويَّتي قائم في كل زمان. فالقرآن يحذّر من هذا المسار عبر التذكير الدائم بأنَّ الدين حركة مستمرّة.

إنَّ هذا التحليل يكشف أنَّ الانحراف يبدأ بالتكلّس. فحين تتحوَّل الرسالة إلى نظام اجتماعي مغلق، يصبح الإصلاح تهديدًا. ولذلك كانت مقاومة الأنبياء في التاريخ جزءًا من صراع أعمق بين الروح والمؤسَّسة، وبين الوحي والمصلحة، وبين العدل والامتياز. وهذا ما يجعل تجربة بني إسرائيل مرآة لفهم أزمات العالم الديني المعاصر؛ حيث تتكرَّر الظاهرة في صور مختلفة.

إنَّ إعادة قراءة هذا التحوُّل تفتح أفقًا نقديًّا يتجاوز الجدل الديني التقليدي؛ لأنَّ القضيَّة ليست في دين معيّن أو جماعة محدَّدة، بل في بنية الانحراف ذاتها. فكلّ مجتمع يمكن أن يختزل الدين في الهويَّة، وكلّ جماعة يمكن أن تجعل الامتياز بديلاً عن المسؤوليَّة. ومن هنا يصبح السؤال القرآني دائمًا: كيف نحافظ على حيويَّة الرسالة دون أن تتحوَّل إلى أداة للهيمنة أو العزلة؟

إنَّ هذا السؤال يقود إلى مفهوم الاستبدال؛ لأنَّ التمركز الهويَّتي هو بداية فقدان الدور الحضاري. وحين تفقد الأُمَّة قدرتها على الشهادة، تبدأ حركة التاريخ بالانتقال إلى غيرها.

رابعًا: سُنَّة الاستبدال

إذا كان الاصطفاء في القرآن الكريم وظيفة رساليَّة مشروطة، وكان التمركز الهويَّتي بداية الانحراف، فإنَّ سُنَّة الاستبدال تمثّل الوجه الآخر لهذا المسار؛ لأنَّها تكشف أنَّ التاريخ في المنظور القرآني يخضع لقوانين خُلُقيَّة ثابتة. فالقرآن يقدّم الاستبدال بوصفه قانونًا حضاريًّا يعيد توزيع الأدوار حين تفقد الأُمم شروط الرسالة. ومن هنا، يصبح فهم الاستبدال شرطًا لفهم حركة التاريخ؛ لأنَّه يربط بين القِيم والفاعليَّة، وبين الأخلاق والمصير.

إنَّ الاستبدال في الخطاب القرآني لا يرتبط ببني إسرائيل وحدهم، وإنَّما يندرج ضمن منظومة سُننيَّة عامَّة تشمل كلّ الأُمم. فالقرآن يقرّر هذا القانون بوضوح في قوله تعالى: ﴿**وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٨]. إنَّ هذا النصّ يدلّ على أنَّ الاستبدال ليس حكمًا على أُمَّة بعينها بل تحذيرًا دائمًا. فالخطاب هنا يحرّر الوعي من وَهْم الحصانة؛ لأنَّ الرسالة لا تضمن البقاء، وإنَّما تضع الأُمَّة تحت اختبار مستمرّ.

ويكشف القرآن أنَّ الاستبدال هو عمليَّة تراكميَّة تبدأ بالخلل الخُلُقي، ثمَّ تتحوَّل إلى عجز حضاري. ولذلك نجد أنَّ القرآن يربط بين الظلم والسقوط، كما في قوله تعالى: ﴿**فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ**﴾ [الحج: ٤٥]. فالظلم هنا بنية حضاريَّة تعكس اختلال الميزان الداخلي.

ومن اللافت أنَّ القرآن يعرض الهلاك بوصفه نتيجة مسار طويل من التراكم. فالتاريخ القرآني يكشف أنَّ الأُمم تمرّ بمرحلة الاستدراج؛ حيث تتوافر لها أسباب القوَّة رغم انحرافها، كما في قوله تعالى: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٢]. إنَّ هذا القانون يبيّن أن الازدهار الظاهري قد يكون مقدّمة للسقوط. وهنا يحرّر القرآن الوعي من القراءة السطحيَّة للتاريخ التي تربط النجاح بالقوَّة وحدها.

كما يشير القرآن إلى أنَّ الاستبدال يرتبط بفقدان القدرة على التجديد؛ لأنَّ الأُمَّة التي تتكلّس تفقد موقعها في حركة الرسالة. ولذلك نجد أنَّ كثيرًا من قصص الأنبياء تنتهي بانتقال القيادة إلى جماعات أخرى أكثر استعدادًا للعدل، كما في قصة بني إسرائيل أنفسهم حين فقدوا دورهم الرسالي تدريجيًّا. إنَّ القرآن يعرض هذا التحول بوصفه انتقالاً في الوظيفة، وليس مجرَّد عقوبة؛ لأن الرسالة لا تتوقَّف عند جماعة معيَّنة.

ومن هنا يظهر أنَّ الاستبدال يحمل بُعدًا إيجابيًّا؛ لأنَّه يفتح المجال أمام قوى جديدة تحمل القِيم. فالقرآن يقدّم التاريخ بوصفه حركة تجديد مستمرّة. ولذلك نجد أنَّ الخطاب القرآني يتحدَّث عن "الإحياء بعد الموت"، كما في قوله تعالى: ﴿**وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ [الروم: ١٩]، وهو تعبير يحمل بُعدًا حضاريًّا يشير إلى أنَّ المجتمعات تمرّ بدورات من الانبعاث والانطفاء.

إنَّ هذا الفهم يجعل الاستبدال أفقًا مفتوحًا. فالأُمَّة التي تسقط يمكن أن تعود حين تستعيد القِيم، كما أنَّ الأُمَّة التي تصعد يمكن أن تنحرف. ومن هنا يصبح التاريخ في القرآن مجالاً للمسؤوليَّة المستمرَّة؛ لأنَّ الموقع الحضاري يأتي نتيجة عمل متجدِّد. وهذا ما يجعل القرآن يربط بين التغيير الداخلي والمصير الخارجي، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

ويكشف هذا القانون أنَّ الاستبدال يبدأ من الداخل؛ لأنَّ الانهيار الحضاري هو انعكاس لأزمة معنويَّة. فحين تفقد الأُمَّة الإحساس بالعدل، وتتحوَّل الرسالة إلى أداة للسلطة أو الهويَّة، تبدأ حركة التاريخ بالانتقال إلى غيرها. ولذلك يكون الاستبدال نتيجة تحوّلات نفسيَّة وثقافيَّة عميقة.

إنَّ استحضار سُنَّة الاستبدال في الوعي المعاصر يحرّر الفكر الإسلامي من الثنائيَّة الدفاعيَّة التي تربط الهزيمة بالمؤامرة وحدها. فالقرآن لا ينفي وجود الصراع، لكنَّه يربط نتائجه بالبنية الداخليَّة للأُمم. ومن هنا، يصبح السؤال الحقيقي ليس عن قوَّة الخصم فحسب، وإنَّما عن موقع الأُمَّة من القِيم. وهذا الوعي يعيد توجيه النقاش الحضاري نحو الإصلاح الخُلُقي

والمعرفي، بدل الانشغال بردود الفعل.

إنَّ سُنَّة الاستبدال بهذا المعنى تشكّل محورًا لفهم الحاضر؛ لأنَّها تذكّر بأنَّ التاريخ ليس مغلقًا، وأنَّ القيادة الخُلُقيَّة للبشريَّة ليست حكرًا على أحد. وهذا ما يمهّد للحديث عن كيف يتجلّى توظيف السرديَّة الدينيَّة في الصراع الحضاري المعاصر، وكيف تحوّلت فكرة الاصطفاء إلى أداة سياسيَّة في المشروع الصهيوني والخطاب الغربي الحديث.

خامسًا: بنو إسرائيل في الجدل الحضاري المعاصر

إذا كان القرآن الكريم قد عرض تجربة بني إسرائيل في إطار سُنني يهدف إلى بناء وعي تاريخي وخُلُقي، فإنَّ هذه التجربة تحوَّلت في العصر الحديث إلى أحد المحاور المركزيَّة في الجدل الحضاري العالمي. فقد أعيد توظيف مفهوم الاصطفاء في سياقات سياسيَّة وثقافيَّة، حتَّى صار عنصرًا في بناء سرديات الهيمنة، وفي تبرير مشاريع القوَّة. ومن هنا تبرز الحاجة إلى قراءة قرآنيَّة معاصرة تميّز بين النص الإلهي وتوظيفه التاريخي؛ لأن الخلط بينهما أدَّى إلى اضطراب كبير في فهم العلاقة بين الدين والسياسة في العالم الحديث.

إنَّ المشروع الصهيوني الحديث اعتمد بدرجة كبيرة على إعادة صياغة اللاهوت التوراتي في إطار سياسي. ففكرة "الشعب المختار" تُطرح بوصفها حقًّا تاريخيًّا ثابتًا، وهو ما يمثِّل انقلابًا على المفهوم القرآني للاصطفاء. فالقرآن يربط الاختيار بالعهد والعمل، كما في قوله تعالى: ﴿**قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ١٢٤]، وهو نصّ يقرّر قاعدة عامَّة تنفي أي امتياز دائم إذا غاب العدل. ومن هنا، يصبح المشروع الذي يبرِّر السيطرة أو الإقصاء باسم الدين خروجًا عن منطق الوحي نفسه.

وقد أسهمت بعض التيَّارات الدينيَّة الغربيَّة، خاصَّة في اللاهوت البروتستانتي، في إعادة إنتاج هذا التصوّر؛ حيث رأت في قيام "دولة إسرائيل" تحقيقًا لنبوءات دينيَّة. وقد أدَّى هذا التلاقي بين اللاهوت والسياسة إلى تحويل التاريخ الديني إلى أداة في الصراع الجيوسياسي.

إنَّ هذا التحوّل يكشف أنَّ الدين حين ينفصل عن الأخلاق يتحوَّل إلى قوَّة تعبئة، لا إلى مصدر هداية. فالقرآن يحذّر من هذا المسار حين يشير إلى خطر توظيف الدين لخدمة المصالح، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا**﴾ [البقرة: ٤١].

كما أنَّ الخطاب الغربي الحديث أعاد صياغة مفهوم الاصطفاء في إطار ثقافي أوسع؛ حيث ظهرت نظريَّات التفوّق الحضاري التي ترى في الغرب وريثًا لهذا الامتياز التاريخي. ففكرة «الاستثنائيَّة» لم تقتصر على المجال الديني بل انتقلت إلى المجال السياسي والثقافي، كما يظهر في أطروحات الهيمنة العالميَّة. وهنا يصبح الاصطفاء رمزًا للسيادة. ومن اللافت أنَّ هذا التحوُّل يعيد إنتاج البنية ذاتها التي انتقدها القرآن؛ لأن الامتياز يتحوَّل إلى تبرير للهيمنة.

إنَّ هذا التوظيف المعاصر يفرض على الدراسات القرآنيَّة أن تتجاوز الجدل العقدي التقليدي، وأن تنخرط في تفكيك السرديَّات الحديثة. فالقرآن يعالج قضيَّة بني إسرائيل باعتبارها نموذجًا لفهم العلاقة بين الرسالة والسلطة. ولذلك فإنَّ القراءة القرآنيَّة المعاصرة ينبغي أن تكشف كيف تتحوَّل المفاهيم الدينيَّة إلى أدوات في بناء النظام الدَّولي.

ومن جهة أخرى، فإنَّ الخطاب الإسلامي المعاصر وقع أحيانًا في ردّ فعل عاطفي؛ حيث تعامل مع القضيَّة بمنطق الرفض المطلق أو التبسيط التاريخي، دون استحضار العمق السُّنني الذي يقدّمه القرآن. إنَّ هذا النمط من الخطاب يختزل القضيَّة في الصراع السياسي، بينما القرآن يعالجها في أفق حضاري أوسع. ولذلك فإنَّ إعادة قراءة تجربة بني إسرائيل تمكّن الفكر الإسلامي من تجاوز الثنائيَّة الضيّقة بين الدفاع والهجوم، لتأسيس وعي نقدي عميق.

كما أنَّ القرآن يقدّم إطارًا خُلُقيًّا عالميًّا يمكن أن يسهم في تفكيك النزعات العنصريَّة والدينيَّة في العالم المعاصر. فالخطاب القرآني يؤكِّد وحدة الأصل الإنساني، كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ**﴾ [الحجرات: ١٣]، وهو ما يضع معيار التفاضل في التقوى والعمل، لا في العرق أو الانتماء. إنَّ هذا البُعد يمنح الدراسات القرآنيَّة قدرة على الإسهام في الحوار الحضاري، بدل الانغلاق في خطاب جدلي.

إنَّ حضور بني إسرائيل في الجدل المعاصر لا يمكن فهمه دون ربطه بحروب السرديَّات التي تشكّل أحد محاور الصراع العالمي اليوم. فالسرديَّة التي تقدّم المشروع الصهيوني بوصفه عودة تاريخيَّة، والسرديَّة التي تبرّر الهيمنة باسم القِيم، تحتاج إلى تفكيك معرفي وخُلُقي. والقرآن يوفّر أدوات هذا التفكيك؛ لأنَّه يكشف أنَّ التاريخ ليس ملكًا لأُمَّة أو حضارة، وإنَّما مجالاً مفتوحًا لحركة القِيم.

إنَّ هذا الإدراك يجعل من الدراسات القرآنيَّة فاعلاً في الحاضر. فالقضيَّة ليست في الدفاع عن الهويَّة وحسب، وإنَّما في بناء خطاب عالمي يعيد مركزيَّة العدل.

ومن هنا يصبح الحديث عن بني إسرائيل في العصر الحديث جزءًا من مشروع أوسع لتحرير الوعي من السرديَّات المغلقة، وإعادة توجيه النقاش نحو القِيم الكونيَّة التي يؤسِّس لها القرآن.

سادسًا: من التاريخ إلى السُّنن

إنَّ اختيار محور بني إسرائيل بين الاصطفاء والاستبدال لا ينطلق من اهتمام تاريخي أو جدلي فحسب، بل يرتبط بحاجة معرفيَّة وحضاريَّة ملحّة في اللحظة الراهنة. فالعالم يعيش اليوم تحوّلات عميقة في موازين القوَّة، وصراعًا مكثّفًا على السرديّات والمعاني، حتى أصبح التاريخ نفسه ساحة مواجهة. وفي هذا السياق، تبرز الحاجة إلى استعادة المنهج القرآني في قراءة الأمم؛ لأنَّه يقدّم إطارًا يتجاوز اللحظة السياسيَّة إلى فهم القوانين التي تحكم حركة المجتمعات.

فالقرآن الكريم يعالج تجربة بني إسرائيل بوصفها أفقًا مفتوحًا للفهم، كما في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [يوسف: ١١١]. إنَّ العبرة هنا هي وعي سُنني يكشف أنَّ التاريخ يحمل نماذج تتكرَّر بأشكال مختلفة. ومن هنا، فإنَّ إعادة دراسة هذه التجربة في اللحظة المعاصرة تعني إعادة تأسيس وعي حضاري يربط بين النص والواقع.

إنَّ القراءة التحرريَّة في المنظور القرآني لا تعني الانفصال عن النص، وإنمَّا تعني استعادة طاقته النقديَّة؛ لأنَّ القرآن في جوهره كتاب تحرير للإنسان من كل أشكال الاستعباد، سواء كان استعبادًا سياسيًّا أم معرفيًّا أم روحيًّا. ولذلك نجد أنَّ الرسالات ارتبطت دائمًا بإخراج الإنسان من الطغيان، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [إبراهيم: ٥]. إنَّ هذا الانتقال من الظلمات إلى النور هو قانون حضاري يتكرَّر حين تتجدد الرسالة في الوعي.

ومن هنا فإنَّ إعادة قراءة الاصطفاء والاستبدال في ضوء القرآن تفتح المجال لبناء وعي عالمي يتجاوز الحدود القوميَّة والعرقيَّة. فالقرآن يرفض احتكار القِيم، ويؤسِّس لوحدة إنسانيَّة تقوم على العدل، كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ**﴾ [المائدة: ٨]. إنَّ الشهادة هنا هي مسؤوليَّة خُلُقيَّة عالميَّة. ولذلك، فإنَّ الأُمَّة التي تحمل القرآن مدعوّة إلى أن تكون نموذجًا للعدل، لا مجرَّد جماعة تسعى إلى البقاء.

إنَّ هذا الأفق التحرّري يفرض على الدراسات القرآنيَّة أن تتجاوز حدود التخصّص الضيق، وأن تنفتح على الحقول المعرفيَّة الأخرى؛ لأنَّ القرآن نفسه يخاطب الإنسان في كلّ أبعاده. فالسؤال عن الاصطفاء والاستبدال لا ينفصل عن قضايا السياسة، والاقتصاد، والهويَّة، والذاكرة. وهذا ينسجم مع المشروع المعرفي الأوسع الذي يسعى إلى تفكيك السرديَّات المهيمنة، وإعادة بناء الوعي من داخل النص القرآني.

كما أنَّ هذا العدد يهدف إلى الإسهام في بناء خطاب قرآني عالمي قادر على الحوار؛ لأنَّ القرآن يؤسِّس لثقافة الاعتراف بالآخر دون التفريط بالحقّ. فهو يقرّر مبدأ التعدّد الإنساني، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ [هود: ١١٨]، لكنَّه يربط هذا التعدّد بالعدل والتقوى.

ومن جهة أخرى، فإنَّ هذا العدد يسعى إلى ترسيخ البُعد السُّنني في التفكير الإسلامي؛ لأنَّ هذا البعد يمكّن الأُمَّة من قراءة موقعها في العالم بوعي وواقعيَّة. فالقرآن يربط النصر

والتمكين بشروط خُلُقيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾ [النور: ٥٥]. إنَّ هذا الوعد هو أفق مفتوح يتحقَّق حين تتحقَّق شروطه.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذا العدد من المجلَّة لم يُخطَّط له في سياق الأحداث المتسارعة التي يشهدها الإقليم اليوم، بل كان إعداده قد بدأ منذ مدَّة ضمن البرنامج العلمي للمجلَّة. لكنَّ صدوره تزامن مع لحظة تاريخيَّة شديدة الاضطراب، تتمثّل في العدوان الإسرائيلي-الأمريكي على إيران ولبنان والعراق، وما رافقه من تصعيد عسكري وسياسي وإعلامي واسع. وقد أضفى هذا التزامن على موضوع العدد بُعدًا إضافيًا؛ إذ بدت الأسئلة التي يثيرها البحث في تجربة بني إسرائيل في القرآن الكريم أكثر حضورًا وإلحاحًا في ضوء ما يشهده الواقع المعاصر من صراع على السرديَّات الدينيَّة والتاريخيَّة. إنَّ هذا التلاقي بين البحث الأكاديمي واللحظة التاريخيَّة لا يعني أنَّ المجلة تسعى إلى قراءة الحدث السياسي المباشر، بقدر ما يؤكِّد أنَّ الدراسات القرآنيَّة قادرة على تقديم أفق أعمق لفهم التحوُّلات الحضاريَّة، واستحضار السُّنن التي تحكم صعود الأُمم وسقوطها، بعيدًا عن الانفعال اللحظي أو التوظيف الأيديولوجي للنصوص.

وأخيرا لا بد من الإشارة إلى أن أبحاث هذا العدد قد جاءت على الشكل الآتي:

حيثُ تناولت دراساتُ المحور: "الاصْطِفَاءُ الإِلَهِيُّ وَالانْحِرَافُ التَّارِيْخِيُّ: المُفَارَقَةُ الكُبْرَى فِي تَجْرِبَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ"، و"بَنُو إِسْرَائِيْلَ بَيْنَ الذِّلَّةِ وَالخُضُوْعِ وَبَيْنَ الاسْتِكْبَارِ وَالتَّمَرُّدِ تَحْلِيْلٌ قُرْآنِيٌّ لِلشَّخْصِيَّةِ اليَهُوْدِيَّة"، و"التَّفَوُّقُ أو التَّمَيُّزُ العِرْقِيُّ: كَيْفَ فَنَّدَ القُرْآنُ مَقُولَةَ الشَّعبِ المُخْتَارِ"، و"سُنَنُ التَّمْكِينِ وَالاسْتِبْدَالِ مَنْطِقُ القُرْآنِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيْلَ"، و"العَدَاءُ اليَهُودِيُّ لِلإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ فِي القُرْآنِ: الجُذُوْرُ وَالمآلَاتُ".

أمَّا بابُ الدراساتِ والبحوثِ القرآنيَّة، فقد خُصِّصَ للغوص في"المَعْنَى المَجَازِيُّ لِمُفْرَدَةِ "يَد" فِي الآيَّةِ الكَرِيمَةِ ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾: تَحْلِيْلٌ تَفْسِيرِيٌّ وَنَقْدٌ لِرُؤْيَّة [الزَّمَخْشَرِيّ]"،

مضافًا إلى قراءةٍ في كتاب: "اليَهُوْدُ وَالصَّهْيُوْنِيَّة مِنْ مَنْظُوْرِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ".

وبذلك يأمل هذا العدد أن يسهم في ترسيخ قراءة قرآنيَّة واعيَّة، تعيد توجيه النقاش نحو القيم، وتحرّر الإنسان من السرديات المغلقة، وتؤسس لوعي حضاري يجعل القرآن مصدرًا للهدايَّة في عالم مضطرب، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ [الإسراء:٩].

والله الموفق إلى سواء السبيل.